مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 10 / العـدد:02 (جويلية2022) ص 812– 826
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

البنيات الاجتماعية في إقليم قورارة من خلال الكتابات الكولونيالية مابين (1900 –1962م)

"أ. ج. ب مارتن A.G.P martin" أنموذجا

Social structures in the territory of Gourara through colonial writings A.G.P Martin is a model

طالب دكتوراه: عبدالرزاق بيدة [1]، محمد سعيدي [2]
baida.abderrazak [1], Saidi Mohamed [2]
1 جامعة وهران 2 (الجزائر)، baida.abderrazak@univ-oran2.dz
مخبر حوار الحضارات والأديان في حوض البحر الأبيض المتوسط، تلمسان: الجزائر
2 جامعة تلمسان (الجزائر)، msaidi45@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/04/24	تاريخ القبول: 2022/06/18	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص : نهدف من خلال دراستنا هذه الى معرفة البنيات الاجتماعية في إقليم قورارة من خلال الكتابات الكولونيالية وحقيقة البعثات الاستكشافية وعلى الأهداف الأساسية لها كالاستكشافات الحقلية للبلدان وتحديد مواقع الثروات إعداد دراسات اثنولوجية، واجتماعية وتحديد المسالك والممرات وانجاز خرائط للمواقع ألمستهدفة فكانت البحوث الدراسات التي قام بها "أ. ج. ب مارتن A.G.P martin" في تقسيم المجتمع الى أربعة فئات اجتماعية كبيرة متصارعة فيما بينها فئة المعمرين وضباط العدو وفئة مالكي العقار الفلاحي والمياه بالفقاقير، وفئة والخماسين الخراصين، المثالثين، وفئة الكادحين المعوزين المغلوبون على أمرهم، ما أدى لظاهرة تقسيم العمل، وبالتالي دخول المجتمع مرحلة التخصيص والتخصص نتيجة لزيادة الكثافة البشرية، وأخيرا ارتفاع إنتاجية العمل، وظهور بنيات اجتماعية ومادية في المجتمع، عملت على استخلاص قواعد جديدة لبناء المكانة الاجتماعية بلعب ادوار متطورة صاغها المجتمع لبقائه.

الكلمات المفتاحية: البنية؛ الكولونيالية؛ التثاقف؛ التراتب الاجتماعي؛ الانقسامية؛ إقليم قورارة.

Abstract

Through this study, we seek to find out the social structures in the Gourara region through the colonial writings and the reality of the exploratory missions and their main objectives, such as field explorations of countries, locating wealth, preparing ethnological and social studies, defining paths and corridors, and completing maps of the target sites. A.G.P. Martin conducted studies that divided society into four large social groups that competed with each other: the category of settlers and colonizers; the category of owners of agricultural property and Fogara (water distribution system); the category of Alkhammaseen and Mothaletheen (workers with one-fifth and one-third of the crop); and the category of the poor, helpless toilers and hardworkers.

Because of the increased human density, society has progressed to the stage of privatization and specialization. Finally, the rise in labor productivity and the emergence of social and material structures in society all point to the extraction of new rules for building social status by playing advanced roles that society formulated for its survival.

Keywords: structure; colonialism; acculturation; social hierarchy; division; Gourara region.

المؤلف المرسل: بيدة عبدالرزاق، **الإيميل**: baidaabderrazak2@gmail.com

1. مقدمة:

تعتبر الكتابات الكولونيالية مدخلاً أساسيا لدراسة ولمعرفة الحياة الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية لسكان اقليم قورارة، حيث حددت الأهداف الأولى لمعرفة أهم نقاط الضعف والقوة لسكان هذه المنطقة من الصحراء الكبرى، وعليه فقد انصبت كتابات الباحثين والضباط على الاستكشاف الباطنية للمنطقة من بترول ومعادن والوقوف على أهم التقسيمات الأثنية في المنطقة، فقاموا بإعداد مجموعة من الدراسات الإثنوغرافيا، الاجتماعية، الجيولوجية، بإيعاز من السلطات الاستعمارية العسكرية، حتى تعتمدها في مشروعها الاستيطاني التوسعي؛ فاستولت على أراضي المنطقة. فما إن دخلت الى الاقليم سنة 1900 حتى قامت القوات المستعمرة بإحصاء ساكني المنطقة ودعمت فئة مالكي الأرض على حساب الفئات الاجتماعية المحرومة. فنتج عن هذه السياسة العديد من المشكلات الاجتماعية التي مازالت اثارها حاضرة ليومنا هذا، كالتفرقة على أساس العرق ولون البشرة الفئوية وعلى أساس الجاه والانتماء الثقافي والإيديولوجي. فظهرت العديد من التقسيمات في المجتمع الواحد، الذي يظهر من خلال الموروث الذي خلفه الاستعمار في إطار الكتابات الأنثروبولوجيا الكولونيالية، حيث اعتمد المستعمر في المراحل الأولى من توسعه على المبشرين، والجواسيس، ثم الخبراء الجغرافيين، والأكاديميين. من بين الكتابات التي اعتمدها المستعمر الفرنسي في غزوه لمنطقة اقليم قورارة نذكر بالخصوص: كتاب **أ.ج.ب مارتن، دراسات جورج بيصو لقورارة.** وهذا كله يدفعنا لطرح التساؤلات التالية:

كيف ساهمت النزوحات القبلية وامتلاك رؤوس الأموال في تفعيل حقلي التعددية البنائية المجتمعية وتشكيل بنيات اجتماعية؟ وهل لامتلاك المصادر المتنوعة علاقة في تكريس التراتبية الاجتماعية داخل المجتمع القوراري؟ هل عرفت أقاليم قورارة مظاهر التراتبية قبل الاحتلال الفرنسي؟

2. تعريف مصطلحات الدراسة:

1.2. تعريف البنية لغة: جاءت من فعل (بنى) يبني بيتاً، وبنى أحسن بناء وبنيان، نقول فلاناً يباني فلاناً يباريه في البناء، والجمع أبنية، والبنية بالضم والكسر ما بنيته يجمع على البنى بالكسر، وجعلوا البنية بالكسر في المحسوسات وبالضم في المعاني (ابن منظور، 1992، صفحة 93).

2.2. التعريف الاصطلاحي للبنية: تمثل الكل المكون من أجزاء منتظمة ومترابطة، لهذا الحد أو ذلك، ولهذه الفترة أولتلك. يستعمل علماء الاجتماع مفهوم البنية الاجتماعية لمعان مختلفة وأحياناً متناقضة بحسب تناولهم للمجتمع ككل أو تناول جماعات خاصة بالتنظيم الاجتماعي أو المواقف الاجتماعية، فعند بحث علماء الاجتماع للبنية يعنون نظاما عضويا للحياة الاجتماعية، قابلاً للنمو وقادراً على الاستمرارية في الزمان والمكان، وفي هذه

الحالة يجري التعامل مع البنية على أنها كلاً خاصاً بالنسبة لغيرها، فليست جسما جامدا، بل هي أجسام حية ومتطورة تمتلك تاريخها الخاص. (ذبيان، 1990، صفحة 93)

3.2. التعريف الإجرائي: نعني بيها في دراستنا هذه، تلك المجموعات المرتبطة فيما بينها بعلاقة الدم، المصاهرة، القرابة، النشاطات، الإثنية، تفاعلاتها رمزية، حراكها مفتوح بينها، ومقطوع مع غيرها.

4.2. الكولونيالية (Colonialism): يعد مفهوم الكولونيالية، ذا أهمية في تحديد الشكل المحدد للاستغلال الثقافي الذي تنامى بالتزامن مع التوسع الأوروبي نحو البلدان السائرة في طريق النمو، فعلى الرغم من ظهور العديد من الحضارات قبل هذا التوجه الأوروبي، إلا أن المستعمر كان يروج فكرة أنه ما جاء لاستعمار الأفراد، بل وجوده لتطوير وتحديث المناطق المحتلة. (وهيلين، 2010، صفحة 310)

5.2.التثاقف (Transculaturation): يشير المصطلح للتأثيرات المتبادلة لطرق التمثيل والممارسات الثقافية على اختلاف أنواعها في المستعمرات والحواضر الكولونيا لية، لقد ارتبط هذا المفهوم بظاهرة الكولونيا لية، يمثل ظاهرة الاتصال بين المستعمر والمستعمر (بفتح الميم)، اعتمده الأنثروغرافيين لوصف اعتماد الجماعات الخاضعة أو الهامشية (المقصية) لانتقاء مواد تنقل لهم من الثقافة المهيمنة أو الحواضرية، وابتكار شيء جديد يظهر كيفية إدخال وتشرب الفرد الثقافة الغالبة للمهيمن عليه (وهيلين، 2010، صفحة 340) هيمنة من يملك القوة على تشكيل إيديولوجية أفراد المجتمع لضبط قواعد السّلوك بما يسمح له بالسّيطرة على الوسائل والمؤسّسات المرتبطة بتشكيل الأفكار، والتحكم في صناعة المحتوى الفكري، وفي مقابل هذا يحاول الخاضعون المستغلون (المهمشون) كيفية الحصول على القوة لتغيير الوضع القائم لصالحهم لتحقيق مكاسب شريعة أو بالثورة (عثمان، 2008، صفحة 25).

القراءة لكتابات "**أ. ج. ب مارتن**"، يلاحظ إغفاله التام لظاهرة التثاقف حيث يعتبر إنشاء ثلاثة أقسام للتعليم الفرنسي بالموازات مع التعليم التقليدي **بأدرار**، رقان، تيميمون، يمثل التحول الحقيقي للممارسات الاستعمارية الهادفة لتمزيق النسيج الاجتماعي وغرس عناصر الثقافة الأوروبية ثقافة الغالب حسب المنظور الخلدوني.

6.2.التراتب الاجتماعي: نسق يعود ظهوره لأسباب جغرافية ومعنوية لجماعات بشرية في أطار هيئات معينة لضمان المنفعة والمصلحة العامة، وقدرات أفراد الجماعة البشرية، بحيث هيكل الكل في بناء اجتماعي يكفل مصالح الجماعة. فالمستعمر لم ينشأ البنيات الاجتماعية(التراتبية) بالمجتمع عايشها وفعل تواجدها بفعل البنيات الزراعية وأنماطها القائمة على نظمي الخراصة، والخماسة، القائمتين على امتلاك المياه، العقار الفلاحي، رؤس

المال الرمزي، الجاه، الانتماء العرقي(الاثني) ...الخ. عمل المستعمر على تدعيم وتشجيع هذه النظم التراتبية ذات البعد العرقي والطبقي خدمة لمصالحه التوسعية في المنطقة. فقوض نظم المكاييل ،الموازين ،المعايير، قواعد توزيع مياه الفقارة بإحداث فروق في نمط وأسلوب الحياة الاجتماعية والثقافية، باستخلاص نظم زراعية إنتاجية جديدة، وإحداث نظام البايلك واعتمادا على نظام السخرة، فظهر بالمجتمع نظام التقويم الانتاجي على اساس احتساب الزمن لإنتاج المادة، فأصبح العامل يتلقى اجرته نقدا بدلا من حصوله عليها من المنتوج.

3. مدخل أنثروبولوجي للبنيات

تعددت مواضيع الأنثروبولوجيا من خلال الدراسات والأبحاث الكولونيالية، فقد أصبحت الأنثروبولوجيا الاستعمارية أو ما اصطلح على تسميته بعلم الاجتماع الكولونيا لي بشكل عام، أداة استعمارية اعتمدتها القوات المستعمرة لتفكيك عناصر البناء الاجتماعي، ففي هذا السياق نسلط الضوء على بعض الكتابات الكولونيا لية التي تناولت الظاهرة البنائية الانقسامية في إطار تقنية الملاحظة بالمشاركة كمجال ثقافي موروفلجي خلال الفترة بين 1892 إلى 1962.

1.3. قراءة اجتماعية ثقافية للبنية:

تعد البنية الاجتماعية في المنظور السوسيولوجي **من** أحد الأطروحات الأساسية التي وضعها "إميل دوركهايم" وباحثون اجتماعيون اخرون خلال القرن الماضي، فالمجتمعات التي نعيش فيها تفرض قيودا وضغوطا على أفعالنا بواسطة الضمير الجمعي، يرى "إميل دوركهايم" (أن للمجتمع اليد الطولي على الفرد، لأنه أكبر وأهم بكثير من مجموع الأفعال والتصرفات الفردية، فقد شبه تلك البنى الموجودة بالبنى الموجودة في البيئة الطبيعية). ظهر مفهوم الانقسام أول مرة عند "إميل دوركهايم" في كتابه (تقسيم العمل الاجتماعي)، في سياق حديثه عن التضامن الآلي والعضوي، فطرح لنا طبيعة الجماعة القطعية (La horde) التي تشكل المنطلق الأول لكل أنماط الاجتماع الإنساني، مبرزا ما يجمع بين أعضائها من تجانس وتشابه، فأطلق عليها (العشيرة) عندما أصبحت جزء من جماعة واسعة وانتقالها هذا من وضعيتها ككيان مستقل قائم بذاته لوضعية الانصهار ضمن جماعات تتجاوزها حجما وسعة ما سمح بظهور المجتمع الانقسامي المكون من مجموعة من العشائر المتشابهة فيما بينها (Durkheim, 1960, p. 149.150) وهذا الانتقال من وضع لآخر يقتضي اعتماد ثلاثة عمليات أساسية، تقسيم العمل، رفع إنتاجية العمل، الكثافة السكانية، فترابط العلاقة بين هذه الثلاثة يؤدي حتما للتغيير والانقسام فيضمنان الانتقال من وضعية لأخرى وان خالف "أنتوني غدينز" هذا الرأي، فيرى ضرورة النظر للفجوة الظاهرة بين البنية والفعل، أي القطيعة بين ما كان سابقا وما سيحدث، وعليه يجب الإقرار بأننا نحن الذين ننشط في صياغة

البنية الاجتماعية وإعادة صياغتها من خلال التفكير والسلوك، فالمجتمعات البشرية في حالة مستمرة من التباني (Structuration) والتشكيل، تبنى وتتشكل في كل لحظة كما هو حال البناء المعماري. بينما "ارفنج هوفمان Erving Goffman" يرى أن ثمة بنية، ثنائية بمعنى أن الفعل الاجتماعي يستبق البنية الاجتماعية، وأن البنية تسبق الفعل في نفس الوقت لأنها لا تعتمد على انتظام الأنماط وتوازنها في السلوك الإنساني. فالأعمال التي يؤديها الخماسين والخراصين في نمطية نظامي الفقارة بأقليم قورارة تمثل أفعالا وتصورات مبنية على أنساق واقعية توافقية صاغها المجتمع بواسطة قواعد عرفية مضبوطة لتنظيم نمطي الخراصة/ الخماسة، فهي ازدواجية تفاعل مادي رمزي يؤديه الفاعل الاجتماعي بتفاعل مالك الماء والعقار الفلاحي فينتج عنهما فعل معنوي يحقق التواصل بين الخماس/ الخراص/ المالك لوسائل الانتاج(غدينز، 2005، صفحة 702).

2.3. البنية الاجتماعية في المنظور السيكولوجي: تشير المنطلقات النفسية الاقتصادية لنوعية تركيب البنى المتنوعة داخل المجتمع القوراري، يقوم تشكيلها على أساسين (مادي ثقافي) تمثل العرقية، اللونية، أحد مظاهر إنتاج وإعادة إنتاج الفكر التراتبي الانقسامي بالمجتمع بما يتفق ومصالح البنية المستحكمة.

3.3. البنية الاجتماعية في المنظور الأنثروبولوجي: يرى "كلود ليفيشتراوس" (Strauss Claude Lévi) أن البنية تحمل طابع النسق أو النظام، تتألف من عناصر إذا تعرض إحداها للتغيير أو التحويل تحولت باقي العناصر كما جاء في الحديث الشريف عن ابي موسى الاشعري قال ان النبي صل الله عليه وسلم قال (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه) (الحديث رواه البخاري ومسلم). فرغم التنافر الظاهر بين البنى في المجال الإنساني ثمة شيء خفي يكوّن بنيتها المشتركة فالبنية تتطلب توفر الشروط التالية:

- اتسام البنية بطابع المنظومة، لتأليفها من عناصر فإحداث التغيير بإحداها يؤدي لتغيير باقي الأنساق الأخرى.
- كل نموذج ينتمي لمجموعة من التحولات كل واحد منها نموذج من أصل واحد.
- تسمح الخصائص المبنية بتوقع طريقة رد فعل عند تغيير أحد العناصر سلبا أو إيجابا.
- بناء النموذج يمكنه تسريع جميع الوقائع الملاحظة (شتراوس، 1977، صفحة 328).

فالبنية مرتبطة بمجموعة من الضوابط والفواعل، كبنية الخماسين والخراصين ترتبط بمجموع الضوابط العرفية وتبرئة الذمة. فيظهر بين البنيات نوع من التمايز والاختلاف لانقسامها لمجموعات مختلفة ومتنوعة يفعلها الإنسان بحسب البيئة المعيشة والثقافة الفاعلة ،يتفاعل الفرد من خلال تواصله ببنيات اجتماعية، ثقافية، مادية، لغوية، زراعية، فلكلورية جميعها ينشطها فاعل اجتماعي من خلال قواعد الضبط السلوكية المجتمعية.

4. نماذج من البنية الاجتماعيّة الثقافية:

يلاحظ في الحياة اليومية للأفراد ظاهرة تزامن نظم الفقارة مع مجموع التفاعلات والسلوكيات الاجتماعية التي كان تداولها في زمن معين لا يطرح أي إشكال ضمن الخطابات والاتصالات اليومية بين الأفراد والجماعات. لانهيار نظم الفقارة وتراجع أنماطها التفاعلية (لخماسة/ لخراصة).

ففي خضم الأبحاث الاجتماعية الأنثروبولوجيا التي أنجزت حول المجتمعات المغاربية خلال الفترة الاستعمارية وما قبلها، برزت المعالم والمواصفات الأولية لما يعرف بالتحليل الانقسامي. فهذا المفهوم يقتضي في نظر البعض إدراج الانقسامية وتصنيفها ضمن الأطروحات الاستعمارية الكولونيا لية. وهنا نشير للعديد من الاعمال والدراسات التي انطلقت من المقاربة الانقسامية في دراسة المجتمع الجزائري، وبالخصوص دراسة بلاد القبائل او الجرجرة ومنطقة الميزاب والصحراء الكبرى الجزائرية. من هذه الدراسات والاعمال حول الجزائر ومناطقها المتنوعة، نذكر دراسة عالم الاجتماع والانثروبولوجيا الشهير أحد اقطاب البربرية وما اصطلح على تسميتها بالقضية البربرية، "اميل ماسكري" Emil Masqueray الذي اهتم بدراسة البنيات الاجتماعية في كل من بلاد القبائل ومنطقة ميزاب. بالإضافة للعديد من الاعمال والبحوث الميدانية الاثنوجرافية لكل من ‘'دوماس" وزميله الضابط "فابر" حول بلاد القبائل، وكذلك كلا من "هانوتو" و"لوتورنو" ببلاد جرجرة حول التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، من هناك ينبغي أن لا نغفل أو ننسى التحليلات والمقاربات الانقسامية التي لا تزال ظاهرة في العديد من الكتابات التي تتخذ من بلدان المغرب العربي موضوعا لها. فقد أتت بنماذج نظرية وأدوات منهجية مميزة في إطار ما سمى بالعلوم الكولونيالية.

وفيما يخص الجنوب الجزائري فالكتابات والأعمال الانثروبولوجيا الكولونيا لية، نشير لأقاليم توات، قورارة، تديكلت، وغيرها من الأقاليم الصحراوية فقد شهدت منذ نهاية القرن السابع عشر لنهاية القرن التاسع عشر نشوب العديد من الحروب والمناوشات، أصطلح على تسميتها بمناوشات (يحمد/سفيان) أو (محبوب/ملول).كانت تنشب الحروب بين فريقي (الصف) أي (العرب / زناتة)، فكانت هذه المناوشات أول لبنة لبداية تكوين البنيات الاجتماعية وانقسام المجتمع لقصوري لفصيلين متناحرين(دينيا/ اجتماعيا/ ثقافيا/ امتلاك مصادر مختلفة)فأول ظهور فعلي للتقسيم السكاني لصفين متخاصمين(عقائديا/ بيئيا/فئويا) الفاعل الاساسي في تزكية الصراعات العوامل التالية: (اكتساب رؤوس الأموال، العرقية النسابية، العصبيات المتخيلة، صراع الاستحواذ على مقدرات الغير، ارتفاع نزوح القبائل لدعم العصبيات والاستيطان والتوطن)؛ فانقسمت القصور في إقليم قورارة لقصور تابعة لصف (يحمد)

واخرى تابعة لصف(سفيان) وقد تعزز الانقسام نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. فاستثمرت القوات الاستعمارية الفرنسية نتائجه ومكوناته.

فقد بنى الأشراف مكانتهم الاعتبارية باكتساب، عقارات، حبات مياه بالفقارة بعضها عن طرق الاهداء، فاستخلصت مكانة قداسية (اعتبارية) اكتسبت مضامينها من بين البنيات السابقة، الامر الذي اعطاها حظوة بين الناس وقبولا، ما أدى لبناء مظاهر التمايز والتباين بين مختلف السكان. فظهر على مستوى المجتمع التنوع البنائي (بنيات اجتماعية/ بنيات اقتصادية/ بنيات ثقافية) فترتب عنها العديد من مظاهر الصراع بين قوتين أساسيتين،فاعلتين اجتماعيا اقتصاديا، أيديولوجيا ودينيا. القوة الأولى مالكة لوسائل الإنتاج، والنفوذ الايديولوجي، بينما الثانية لا تملك سوى قوة عملها خاضعة كليا للقوة الأولى. فامتلاك رؤوس الاموال يمكن من بناء مكانة اجتماعية وقوة لفرض الايديولوجية على الآخر (مناصرية، 1990، صفحة 06).

تعد دراسة البنيات الاجتماعية في الوسط الريفي من أهم القضايا التي ركز الباحثون الأنثروبلوجيون والاجتماعيون خلال الحقبة الاستعمارية أبحاثهم عليها. لقد لفت هذا الموضوع الدقيق والمعقد انتباه جل الباحثين الذين خصصوا جزءاً من أعمالهم لوصف التنظيمات والتشكيلات الاجتماعية وسعوا لتصنيف وتحليل مؤسساتها والآليات حكمها.

تعد أعمال "**أ. ج. ب مارتن A.G.P martin**" من الناحية العلمية والأنثروبولوجيا المتعلقة بالوسط الريفي لأقاليم توات الثلاثة على وجه الخصوص أحد المصادر الهامة لبداية دراسة الحقبة الاستعمارية من 1900إلى 1962سواء على مستوى التحليل العلمي الذي ربط فيه بين الظواهر الاجتماعية وعمقها التاريخي، البيئي، وارتباط تفاعلات الأفراد بتشكيل البنيات الاجتماعية. واعتماده منهجية حقلية مبنية على الملاحظة بالمعايشة واستنطاقه الوثائق (مخطوطات الخزانات الشعبية) مكنه من دراسة أسماء الأماكن، والعشائر، والقبائل، وبنية الفئات الاجتماعية، والمادية، والهيدرولوجية التي تشكل البناء الاجتماعي، وما له صلة بحياة الافراد والجماعة ماضيهم وحاضرهم، فقد مكنته رتبته العسكرية(رائد بالجيش الفرنسي) مكلف بمهمة التجسس كما ساعده اتقان اللغة العربية ومفردات الدارجة المحلية من الاطلاع على أهم مصنفات الخزانات الشعبية، فقام بإحصاء مخزونها في المرحلة الاولى، وفي المرحلة الثانية قام بتصنّيف اهم ما بداخلها من كتب مخطوطة في كل الفنون وقد لاحظنا تركيزه على انواع من الكتب والتخصصات (كتب التاريخ، الاجناس، النوازل والفتاوى، نظامي الفقارة (الخماسة/الخراصة)، كتب متعلقة بالعادات والتقاليد والاعراف، وكتب متعلقة المكاييل والموازين والاعيرة ولأصوعه، وفي المرحلة الثالثة اعتمد

ترجمة ما يحتاج إليه خاصة في مجال(علم الأنساب، التاريخ، اسماء القصور، الفئات الاجتماعية، إحصاء الفقاقير، إحصاء مياهها، إحصاء الفرق الفلكلورية، دراسة الخصائص والتمايزات بين فلكلور: توات، قورارة، تديكلت، ، ثم إحصاء المساجد، والمدارس القرآنية، وأعيان القصور،وقادتها، ونقباء الاشراف، فقام بإعداد دراسة اجتماعية تهتم بالأنشطة والحياة اليومية للسكان لمعرفة كيفيات توافقاتهم ونزعاتهم، خصص فيها محورا لدراسة الحياة الدينة للسكان وعلاقتها بالعادات والتقاليد والمدارس القرآنية) (**Dictionary Clinical Psychology**, 2013,p 560.).

إن اختيارنا لأعمال "**أ. ج. ب مارتن**" كنموذج لما أنجز من دراسات أنثروبولوجيا كولونيا لية حول البنيات الاجتماعية خلال الفترة الاستعمارية يعود لكون كتابيه اشتملت على أهم ما كتب عن البناء الاجتماعي. وتفاعلات البنيات الاجتماعية خلال الحقبة الاستعمارية وما قبلها فقد ركزنا على كتابي الأنثروبولوجي والضابط الفرنسي "أ. ج. ب مارتن". الواحات الصحراوية (Les Oasis Sahariennes) والثاني بعنوان: المغرب في أربعة قرون (Quatre Siècles d'Histoire Marocaine: Au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1912: D'après les archives).

وللتعرف أكثر على وجهة نظر "**ا. ج. ب. مارتن**" Alfred Georges Paul Martin ومقاربته للظواهر الاجتماعية البنائية في الوسط الريفي بداية من سنة 1892–1939،

في البداية نشير ومنذ دخوله الأقاليم الصحرايوية سنة 1904، عمل بدون هوادة على إحداث التوافقات بين المستعمر وقادة القصور بانه مسلم يتقن اللغة العربية، من أجل تسهيل عملية وولوج القوات الاستعمارية كافة قصور المنطقة. حيث يظهر قدرته على استنباط واستقاء معلومات وافية من المخطوطات التي جمعها، خاصة مخطوطة (غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل) لمحمد بن عبد الرحمان البلبالي التواتي. بالإضافة لتقربه من بعض المشايخ ونقباء أشراف الأقاليم كما يشير في كتابيه، فقد تزود بمعلومات ومخطوطات حول الصحراء الكبرى، وهي نفس الواقعة التي حدثت مع الأب فوكو، ودوفريDuveyrier Henri وغيرهما من علماء الاثنولوجيا، والأثنولوجيا العلم الذي يبحث في أصول الشعوب المختلفة وخصائصها وتوزّيعها وعلاقة بعضها ببعض، وتدرس ثقافاتها دراسةً تحليلية مقارنة.

فمن خلال كتابه "Oasis Sahariennes" الذي يحتوي على جزأين كبيرين الأول حول الجانب التاريخي، والأخر درس فيه الجانب الجغرافي للصحراء الكبرى. ففي كتاب التاريخ حاول ان يعرض فيه اهم الحضارات التي عرفتها المنطقة ابتداء من العهد البربري Berbère لغاية احتلال الاستعمار الفرنسي للأقاليم الصحراوية سنة 1900.

5. البنية الاجتماعية لإقليم قورارة من خلال الكتابات الكولونيالية:

لقد استغلت ظاهرة البنية الانقسامية كمشكلة اجتماعية من قبل عديد الجهات قديما وحديثا لفرض الهيمنة والسيطرة واستغلال مقدرات الشعوب، فقد تحولت العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل خاص لتنفيذ المشاريع الاستيطانية التوسعية، وهذا ما حدث بالفعل في الجزائر خلال الوجود الفرنسي، فقد تحول علماء الانثروبولوجيا الكولونيالية لأداة استعملتها الإدارة الاستعمارية في التجسس على الأهالي وجمع البيانات الخاصة بالحياة الاجتماعية الاقتصادية والثقافية، وسوف نعرض بعض الأعمال والدراسات التي قامت بها بعض البعثات التبشيرية وظفت في خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي ومنها الاكتشافات العلمية وبعثات الجنوب الغربي الجزائري حيث نشير هنا للدّور الفعّال الذي لعبه "**ليون روش**" Léon Roches في بناء قواعد التدخل وتسهيل عملية الاستحواذ على الافراد والجماعات، فطريقة تغلغله في الوسائط والفعاليات البنائية تشبه الطريقة التي اتبعها "**أ. ج. ب مارتن** " في خدمة القوات الفرنسية كمخبر وجاسوس. بإقليم قورارة، فقد مكث في الجزائر مدة 32 سنة تمكن فيها من جمع معلومات خاصة وعامة على افراد المجتمع، ولكونه يتقن اللغة العربية جيدا واللهجة الدارجة، عمل كاتباً لدى الأمير عبد القادر، واستفاد من ضيافة وكرم الرجل، إلا أنه خانه، والتحق بجيوش المارشال" **بيجو**" بعد هزيمة الأمير. فزيادة على التقارير العسكرية التي كان يبعث بها للحكومة الفرنسية، ترك لنا مجموعة من الكتابات حول تجربته الشخصية في ديار الإسلام جاءت هاتان الدراستان حاملة لشهادات حية حول معايشة الرجل البدوي والصحراء. الأعمال هي:

- Trente-deux ans à travers l'islam (1832-1864).
- Dix ans à travers l'islam (1834-1844).
- Henri Duveyrier (1840-1892).

ونتيجة لمحتويات هذه الأعمال سارعت القوات الاستعمارية لدراستها ومتابعة خطواتها وتفعيل خرائطها، فمن نتائجها إرسال بعثات استكشافية للأقاليم الصحراوية لمعاينة الواقع كما هو وإعداد دراسات أنثروبولوجيا ودراسات اجتماعية وإحصاء القصور، والقصبات وسكانها ومعرفة مخارجها ومداخلها، ومعرفة أعيان القوم ومعرفة النظم داخل القصور والقصبات، لتبدأ البعثات الاستكشافية في وضع تقاريرها.

إن الدراسة النقدية لأعمال "**أ. ج. ب مارتن**" تضع الباحث في حيرة من أمره، ففي أي خانة يمكن تصنيفه؟ باحث اجتماعي، أنثروبولوجي، أو جاسوس يقوم بمهمات كلفته الإدارة الاستعمارية بأدائها، ونظرا لما يتمتع به من حنكة ومعارف عن الصحراء الكبرى خاصة تحكمه في اللهجة العامية والعربية. ومع هذا نلاحظ أن الكتابين السابق ذكرهما لهذا الباحث احتويا على معلومات متنوعة وغزيرة عن نشأة المجتمع وتكوين فئاته الاجتماعية. كما نستخلص منهما حملا ثقافيا تميزيا وعنصريا في بناء السرد الحداثي، ما أدى ببعض الكتاب المحليين أن يتبنوا نظريته وطروحاته الاستئصالية التغريبية الانقسامية، فمن بين المآخذ التي تؤخذ عليه تأصيله الفكر التراتبي بين السكان لدعم التباينات العرقية الاثنية بين سكان الجنوب. ومساهمته احياء النعرات القبلية والحروب بين الأهالي من خلال ما اصطلح على تسميته بمناوشات (يحمد/ وسفيان)، هذه الحروب كانت تتم بين العرب والزناتيين، فقد خصص في كتابه Oasis Sahariennes فصلا كاملا لإبراز الاختلافات العرقية والثقافية بين العرب وغير العرب، فهو أول من كتب عن التراتبية الاجتماعية وتقسيم البناء الاجتماعي لفئات اجتماعية ومادية بالجنوب الجزائري وخاصة بإقليم القورارة، وقدم دراسات مستفيضة عن الظاهرة الانقسامية بالمجتمع القوراري، سعى جاهدا لإبراز التباينات الطبقية والفئوية بين السكان، ومن بين الفئات الاجتماعية التي ركز بحوثه عليها: فئة الأشراف، المرابطين، الحراطنيين، العبيد، والطائفة اليهودية القاطنة بالإقليم، هذه الصراعات العرقية والتباينات الطبقية الفئوية لم تدون من قبل، تمثل طابو بالنسبة للمجتمع القوراري، وللإشارة الفكر التراتبي الانقسامي، وجد قبل دخول القوات الاستعمارية، عملت فرنسا على استغلاله وتوظيفه في ضرب الوحدة الترابية وتقسيم النسيج الاجتماعي. فأينما وجدت المصادر وجدت الفروقات بين الأفراد، لقد عمل «أ. ج.ب **مارتن**" على احياء هذه الخلافات والصراعات الحادة بين العرب والزناتيين، فقسم المجتمع لفئات اجتماعية، فئة الأشراف، فالأشراف كانوا يقومون بالصلح بين (يحمد وسفيان) وكانوا يقيمون الاتفاقيات المتعلقة بالصلح. (Martin, A, G, P, 1908,pp 37–41) .

6- تفكيك الاستعمار (Décolonisation):

لم يشر "**أ. ج. ب مارتن**" لعمليات الانتفاضة والصحوة التي كان السكان يقومون بها عند قدوم المستعمر لاستكشاف أراضيهم، فبداية من سنة 1882–1902، عمل الأهالي على تفكيك الخطط الاستعمارية بالكشف عن النفوذ الكولونيالي بكافة أنماطه، فشملت عملية تفكيك الاستعمار هدم العناصر المسثمرة لتلك القوى المؤسسية والثقافية التي تمنح ديمومة النفوذ الكولونيالي، فالصدام الذي حصل داخل المجتمع كان بين نظام تقليدي عرفي ينظم حياة الأفراد والجماعات، ونظام كولونيالي جديد يحاول بسط نفوذه وقوته وجبروته على المجتمع، فنتج الصراع

بين النظامين، فتم رفض الجيوش الاستعمارية، فنظمت المقاومة الشعبية والجهاد ضد النصارى. (Martin, 1908, pp. 218-219)

7. **تحليل "أ. ج. ب مارتن" للبنيات الاجتماعية للمجتمع القوراري:**

لقد اعتمد شكلا هرميا لتحليل كيفية بناء الفئات الاجتماعية بمجتمع قورارة، فقد أظهر ولأول مرة كيفيات تشكيل التباينات البنيوية الانقسامية، وحدد عوامل تفعيلها فواصف البنيات على الشكل التالي:

-**بنية الأشراف:** شكلت على أساس الانتساب لآل الرسول علويين، أدارسة، حموديون، فلآليون، سعديين.

-**المرابطين:** فعلت للقيام بأدوار دينية كرجال الزوايا، وتعليم القران الكريم.

-**الاحرار:** سواء من أصل عربي أو بربري أو بدون تحديد الأصل.

-**الحراطين:** أو الحراثين المرتبطين بالزراعة وحفر الفقاقير.

-**العبيد:** يقتصر الأمر على المجلوبين من دول الساحل الافريقي.

يؤكد "**أ. ج. ب مارتن**" أن تشكيل هذه الفئات مقنن اجتماعيا (عرفيا) متداول على مستوى كل الواحات مفعل ثقافيا، لأن كل فئة أو بنية تعرف حدودها واجباتها وحقوقها نحو الفئات الأخرى تتصرف في إطار ذلك بعلاقة اقتصادية في تعاملاتها اليومية. فبعض هذه الفئات حراكها مغلق (زواج الضو) كفئة الأشراف المرتبط بشرط النسب فمسالك الارتقاء إليها مسدودة. بينما بعضها حراكها مفتوح وفي حدود ضيقت على الفئة التي تليها في الترتيب، كانفتاح فئة المرابطين على الفئة الاحرار. (بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، 2011، صفحة 229)

لقد حاول «**أ. ج. ب مارتن**" دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية الناتجة عن تفعيل وتفاعل البنيات الاجتماعية والثقافية، وتحديد العلاقة الترابطية الكامنة فيما بينها، فلم يوفق لأن الباحث في التاريخ الاجتماعي لمجتمع انقسامي عليه من البداية مراعاة التطابق والازدواجية التفاعلية بين (البنى المادية واللغوية والفلكلورية) لارتباطها بتفاعلات البنى الاجتماعية للمجتمع. المحرك الرئيسي لكل تفاعل وتواصل، لكونها تبني العلاقة القائمة بين البنى المادية والاجتماعية. فلا يمكن أن يتضح للباحث كيفية صيرورة تنظيم الفئات وتراتبها الاجتماعي وتكتلاتها التي تأخذ كيفية توضيح العلاقة بينهما. فاقتصار البحث على بنى مادية رغم أهميتها لا يؤدي للإحاطة بكل جوانب المجتمع المدروس خاصة اذا تعلق الامر بمجتمع تعددي.

يمتاز إقليم قورارة بتنوع عناصر ساكنتها وتعايش العناصر فيما بينها. يفسر هذا التنوع تاريخ الأقاليم الطويل الذي عرف نظاما زراعياً مبنياً على مرتكزات بناء المكانة ولعب الادوار المختلفة تمثلت في: (ملكية الماء، العقار الفلاحي، النسب المقدس)، تعاقبت على المجتمع عناصر مختلفة اتخذت من الواحات مقرا لها. يفسر ذلك بعدها عن مراكز السلطة والهيمنة السياسية، فكانت مقصد العديد من القبائل والرحل لوقوعها على طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى من الشمال للجنوب ومن الجنوب للشمال.

فعند ما نتفحص كتابي "أ. **ج. ب مارتن**"، وإن كان وضع تصنيفا وتقسيما للمجتمع استخلصه من الواقع المعيش ومخطوطات الخزانات التي اطلع عليها، ومع هذا لم يصل لتحديد عناصر كيفيات استخلاص بناء المكانة الاجتماعية، وتحديد حواضن إنتاج وإعادة إنتاج الفكر التراتبي .

8. ويؤخذعلى فكر"أ. **ج. ب مارتن**": توجه فكره لتهيئة الآخر لقبول الأمر الواقع، بتكريس انبنائية الفرد وقبوله ثقافة الآخر(المستعمر).

1.8. صناعة وتهيئة الآخر: لتقبل كل ما يعرض عليه، لقد صاغ هذا المصطلح "سيفاك" في إشارة للعملية التي يبنى بواسطتها الخطاب الإمبريالي، بينما يقابل الآخر (Othe ring) بؤرة الرغبة أو القوة التي تنتج الذات من خلال العلاقة ضمنها. فالآخر هو الذات المستعبدة (التي يتم التسيد عليها)، وحول ثنائية السيد/الخاضع التابع، نلاحظ عدم إحداث فرق بين ما كتبه "مارتن" والعديد من الباحثين الأنثروبولوجيين الكولونياليين،فقد عمل على تعميق الهوة بين المستعمر والمستعمر ،وهذا ما نجده عند عالم الاجتماع **البير ميمي Albert Memmi** الذي قدم لنا تحليلاً موضوعياً بكتابه الشهير Portrait du colonisé،Portrait du colonisateur précédé du portrait du

2.8. **التثاقف (Transculturation)**: تبدو ظاهرة غالبة في كتاب أجبي مارتان "الواحة الصحراوية"، يشير مصطلح التثاقف للتأثير المتبادل لطرق التمثيل والممارسات الثقافية على اختلاف أنواعها في المستعمرات والحواضر الاستعمارية، لقد استعمل الأوتوغرافين المصطلح لوصف كيفية اعتماد الجماعات الخاضعة أو الهامشية لانتقاء مواد تنقل إليهم من الثقافة المهيمنة(الأم)، بمعنى تحقير المغلوب يأتي من عدم امتلاك قواعد بناء المكانة ومرتكزاتها، فمن يهيمن يملك القوة على تشكيل إيديولوجية المجتمع المهيمن عليه ويصيغ قواعد السلوك والضبط الاجتماعيين، بما يسمح له من إنتاج واعادة انتاج الواقع لما يتفق ومصالحه، وذلك من خلال السيطرة على وسائل الإنتاج المادية والمعنوية والمؤسسات المرتبطة بهما. وفي المقابل يحاول المهمشون البحث عن مصادر القوة للخلاص، فيقع المجتمع بين فكي كماشة، التغير الاجتماعي بفعل الوعي الجماعي الذي اكتسبه الأفراد والبحث عن البدائل المنقذة من الوضع الحالي (عثمان، 2008، صفحة 95)، فبداية من القرن السابع عشر لنهاية القرن التاسع

عشر ميلاديين عرف المجتمع القوراري ظاهرة (الصف) أو ما يطلق عليه محليا مناوشات (يحمد وسفيان،). لقد كانت جماعة القصور تعرف بانتمائها لأحد الصفين دخل المجتمع على إثر ذلك تبنى المجتمع ظاهرة اللامعيارية للخلافات المذهبية، وامتلاك المصادر، وتقوية العصائب، فانقسم المجتمع لفصيلين متناحرين متعارضين في إطار التقسيم الثنائي الذي طبع حياة الناس مدة ثلاثة قرون.

لقد اختلف الكتاب حول أصل التسمية، لهذا التقسيم الثنائي، فليس هناك مصادر رسمية تعطي الإشارة لتفسير أصل كلمة (يحمد/سفيان). لقد اتجهت الأبحاث لقبائل بني معقل التي بدأت هجرتها للواحات منذ القرن الرابع عشر ميلادي. وهذا ما توصلت إليه الفرضية الأولى، تشير هنا:

– أن الصراع الذي ظهر بين القبائل المعقلية التي هاجرت للواحات حملت معها صراعاتها وأشركت فيها العناصر السابقة في الواحات.

– والصراع بين الوافدين الجدد والقدامى كان على المسارح ومنابع المياه، والبسائط يشير "**مارتن**" أن الصراع كان في شمال الواحات (بواد/مقيدن) بين فريق (المحبوب/والملول). فأهل **المحبوب** يمثلون فريق العرب الذين يعتمدون في تغذيتهم على الحبوب، وأهل الملول هم الزناتيون الذين يعتمدون في تغذيتهم على **الملول** (نبات ينمو بصورة طبيعية في الصحراء). من هنا يمكننا تفسير الصراع الحاصل بالواحات بمنظور النظرية الانقسامية، فمن تفاعلات ذلك وقعت صراعات دامية وحروب متتالية كما وقع في قصور أولاد سعيد خلال القرن الثامن عشر ميلادي ضمن صف سفيان. وفي سنة 1800 غيرت انتماءها لصف يحمد. نستخلص من ظاهرة الصف ثلاثة نماذج: **نموذج قورارة:** توزع فيها الصفان (سفيان/يحمد). **نموذج توات:** سيطر عليها صف سفيان. **نموذج تديكلت:** انضوت تحت صف يحمد. وهذا ما يؤكده طرح التساؤلات بأن مظاهر التراتبية والانقسامات الأثنية، كان يعيشها المجتمع القوراري قبل دخول القوات الإحتلالية الاستعمارية للأقاليم، تدعمت أكثر خلال القرن السابع عشر لنهاية القرن التاسع عشر ميلاديين. فقد استخلص"**أ. ج. ب مارتن**" من خلال دراسته لهذه المناوشات والصراعات القبلية/ الفئوية، كيفية بناء المظاهر التفكيكية الانقسامية بالمجتمع المدروس. والتي بناها على اساس الجاه/المقدسات/الملكية فدعم مظاهر التباعد الاجتماعي التراتبي بين الفئات الاجتماعية، كونه الوحيد المعتد عليه كوثيقة اساسية في دراسة تاريخ الصحراء بصفة خاصة خلال الحقبة الاستعمارية 1900–1962م.

9. خاتمة:

بعد دراسة الأعمال والابحاث الكولونيالية تبين أن الاقاليم عرفت عديد البعثات الاستكشافية تمهيدا لغزوها. فقد شكلت ولا تزال تشكل الانشغالات الكبرى لعلماء الانثروبولوجيا، والاجتماع لما لها من خصوصيات تميزها عن باقي المناطق الجزائرية الأخرى. فخلال هذه الدراسة وقفنا على بعض الأعمال الانثروبولوجيا التي حاول أصحابها دراسة بعمق مصدرية الثقافة المحلية، وتنوعاتها وتبيان تفاعلاتها بين الفئات الاجتماعية.

فقد تبين لنا أن مجتمع الدراسة رغم التغيير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، بقيت البنيات الاجتماعية،الثقافية،المادية لم تتغير، فمظاهر التراتبية الانقسامية لازالت قائمة تفعل إنتاجا واعادة انتاج مظاهر الوصم الاجتماعي La stigmatisation sociale بين مختلف الفئات اضافة لهذا كرس المستعمر الفرنسي عوامل التقسيم التراتبي ، باعتماد نظرية فرق تسد لتفكيك البنيات الاجتماعية.

10. المراجع:

- كلوليفي شتراوس. (1977). الأنثروبلوجيا البنيوية. (المترجم: مصطفى صالح) دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- إبراهيم عيسى عثمان. (2008). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. بغداد: منشورات الجمل.
- انتوني غدينز. (2005). علم الاجتماع (ط1). (المترجم فايز الصباغ) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- بيل،أشكروفت. وجاريت جريفيت وهيلين. (2010). دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية (ط1). (ترجمة: أحمد الروبي أيمن حلمي، عاطف عثمان، المترجمون) مصر: المركز القومي للترجمة.
- سامي، ذبيان. (1990). قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية (الإصدار ط1). دار رياض الرايس للكتب والنشر.
- محمد بن مكرم، ابن منظور. (1992). لسان العرب (مج 14). لبنان، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع.

- يوسف مناصرية. (1990). مهمة "ليون روش" في الجزائر والمغرب، 1832-1847. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- A.G.P. Martin .(1908) .Les Oasis Sahariennes .Alger.

- Durkheim, 5. (1960). De la division du travail social (7 ed.). Paris: Presses Univ ersitaires de France.